موسوعة تاريخ مصر

أمجاد المنصورة

إعداد: هشام الجبالي



مرحبا باصدقائى فى كل بقعة من أرض مصر،

أسمى «نيل» وُجدت منذ أن شق النهر مجراه فى أرضنا فجلب لها الخصب والنماء، عشت كل هذه القرون بينكم أصاحب أجدادكم القدماء فى رحلات البناء الطويلة، وأرافق أباءكم فى مسيرة العمل من أجل رقى مصر وتقدمها، أشاركهم أحزانهم وأأسى لهزائمهم، أسعد بإنجازاتهم وأشيد بانتصاراتهم، أعشق كل ماهو مصرى فأطوف بأرجاء البلاد شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، أبحث عن كل جديد، عن كل بناء وتقدم، أقضى النهار أحث أبناءها على بذل المزيد من الجهد، وأمسى لأحلم لها بغد أكثر إشراقا ومستقبلا يملأه الرقى والتحضر، اعتدت أن أصاحب الشيخ كثير النشاط والحركة «تاريخ» كلما جاء لزيارة أرضنا، أقص عليه أخبارها وأقدم له المساعدة ليسجل لها فى أوراقه جهد أبنائها وشموخ حضارتها، لهذا ستجدونى معكم عبر حكايات «تاريخ» وحوادث مصر وأخبارها.

موسوعة تاريخ مصر

المحـــرر : هشام الجبالى — الجمع التصويرى : المكتب العربى للمعارف

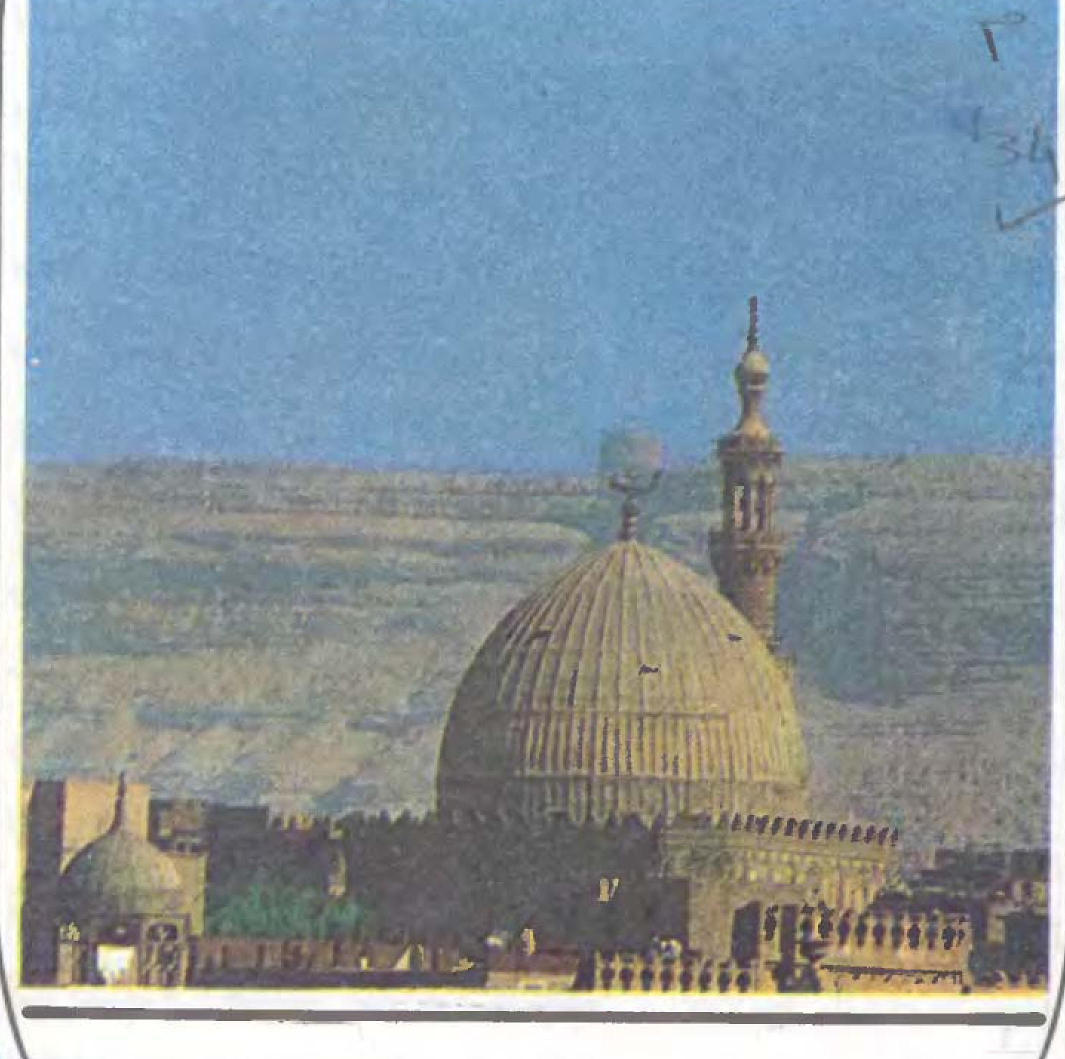
الرسوم الداخلية : علاء حجـــازى — الإخراج : المكتب العربى للمعارف

هانى طه - إيهاب وصفى - حنان فتحى — رقم الإيداع : ١٩٩٤/٥٤٤١

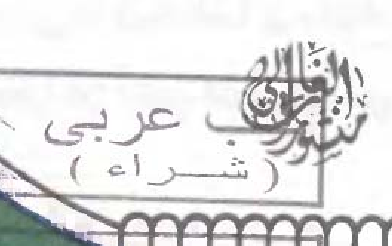
المراجعة اللغوية : شوقى هيكل — الترقيم الدولى : I.S.B.N: 977-276-018-5

موسوعة تاريخ مصر

أمجاد المنصورة



إعداد: هشام الجبالي



كان صلاحُ الدينِ يوسفُ بْنُ أيوب قائداً فذاً من ذلك الطرازِ الذى يسعى به ذكاؤُه وطموحُه إلى رحابِ المجدِ والرفعةِ متى أتيحت له السبلُ، فإن لم تتحْ راح يخلقُها ويمهدُ جنباتِهَا بطوفانٍ من الكدِّ والعملِ الذى لايعرفُ إليه اليأسُ أو المللُ طريقًا، وهكذا لم يكتفِ صلاحُ الدينِ بما أتاحته له الأقدارُ من انفرادٍ بحكمِ مصرَ عقبَ وفاةِ العاضد الفاطميِّ ونورِ الدينِ محمودٍ الزنكيِّ، بل راح يمهدُ لنفسه سبلَ السيطرةِ على أراضى الدولةِ الزنكيةِ التى أصابها الوهنُ والتفككُ عازمًا على ضمِّهَا إلى ملكِه، لتألفَ مع أرضِ مصرَ جبهةً واحدةً في وجهِ احتلالِ الصليبيين لبعضِ الأراضى العربيةِ وأطماعِهِمْ في بعضِهَا الآخرِ، وعلى هضبةِ حطينَ في صباحِ الخامسِ من يوليو عامَ ١١٨٧ نقشت الجيوشُ العربيةُ بقيادةِ صلاحِ الدينِ في ذاكرةِ العالمِ وقائعَ انتصارِهَا الرائعِ الذى انطلقت من خلالِه تزيلُ آثارَ الاحتلالِ الصليبى من فوقِ أرضِ العربِ، حتى إذا ماتُوِّجَتْ فتوحاتُهَا بتحريرِ مدينةِ بيتِ المقدسِ انتفضت أوربا وأرسلت بخيرةِ فرسانِهَا وملوكِهَا إلى الشرقِ حيث خاضوا مع جيوشِ صلاحِ الدينِ المعاركَ يقودُهم ملكُ إنجلترا الشابُّ ريتشاردُ قلبُ الأسدِ الذى سرعان ما لمس مقدارَ صلابةِ خصومِهِ وأدرك مدى صعوبةِ النَّيْلِ منهم، فراح يسعى إلى عقدِ الهدنةِ ووقفِ المعاركِ التى ماكادت تتوقفُ حتى لحقت الوفاةُ بالناصرِ صلاحِ الدينِ في أوائلِ عامَ ١١٩٣ .

ولأن الدولةَ الأيوبيةَ مع اعتمادِهَا الكاملِ على زعامةِ صلاحِ الدينِ راحت تنشغلُ بخوضِ المعاركِ والتجهيزِ لها عن توطيدِ دعائمِ حكمِهَا وإدارتِهَا كان لابدَّ أن تتوالى عليها المتاعبُ عقبَ فقدِهَا لسلطانِهَا وقائدِهَا الراحلِ، إذ تفرقت أراضيها إلى إقطاعاتٍ شبهِ منفصلةٍ تحتَ حكمِ

ملوكِ البيتِ الأيوبيِّ وفى مقدمتِهِمُ العادلُ بْنُ أيوب وأبناءُ صلاحِ الدينِ الثلاثةُ الأفضلُ والعزيزُ والظافرُ، ومع جلوسِ الأفضلِ الذى لم يتميزْ بغيرِ الضعفِ وعدمِ القدرةِ على إدارةِ دفةِ الحكمِ على عرشِ السلطنة خلفًا لأبيه، حاولَ العزيزُ ملكُ مصرَ الحصولَ على أراضيه وشرع في محاصرتِه خلفَ أسوارِ دمشقَ أكثرَ من مرةٍ، غيرَ أن العادلَ وقف أمامَ محاولاتِه منصبًا من نفسه حكمًا فيما ينشبُ من نزاعاتٍ في أرجاءِ الدولةِ الأيوبيةِ أولَ الأمرِ، ثم مالبث أن عزمَ على الإطاحةِ بالجميعِ وتوحيدِ الأراضى الأيوبيةِ من جديدٍ تحتَ زعامَتِه، وبالفعلِ ابتدأ بأراضى الأفضلِ في سوريا ولبنانَ وفلسطينَ عامَ ١١٩٦، وبعد ما يقربُ



شمعدان نحاسى – فنون إسلاميه القرن الثالث عشر

من عامين تُوُفِّيَ العزيزُ وأسرع قادةُ جيوشِ مصرَ باستدعاءِ الأفضلِ وتسليمه الحكمَ، فلم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى أتاح الأفضلُ بضعفِه وسوءِ تصرفِه الفرصةَ أمامَ العادلِ ليغزوَ بجيوشِه أرضَ مصرَ ويتمكَّنَ من فرضِ سيطرتَه عليها في أوائلِ عامِ ١٢٠٠، وهكذا نجح العادلُ في توحيدِ الجانبِ الأكبرِ من الأراضى الأيوبيةِ تحتَ زعامَتِه، لكنه مالبث أن عادَ وقسَّمَ أراضىَ دولَتِه بعد احتفاظِه بلقبِ السلطنةِ بين أبنائِه الثلاثةِ الكاملِ والمعظمِ والأشرفِ حيثُ كانت مصرُ من نصيبِ الملكِ الكاملِ الذى قُدِّرَ عليه الدخولُ في مواجهةٍ عاصفةٍ مع القوى الصليبيةِ، إذ كان حكامُ الإماراتِ الصليبيةِ في المشرقِ قد فزعوا من محاولةِ العادلِ إعادةَ توحيدِ الجبهةِ الأيوبيةِ وأسرعوا يستنجدون بالأوربيين، ليتمَّ إعدادُ الحملةِ الصليبيةِ الرابعةِ التى انحرفت تحتَ تأثيرِ أطماعِ الغربِ الأوربى، وتوجَّهَتْ صوبَ القسطنطينيةِ عامَ ١٢٠٤، وإلى أن يتمَّ الانتهاءُ من إعدادِ حملةٍ جديدةٍ ظلَّ الصليبيون حريصين على عدمِ إشعالِ نيرانِ معركةٍ حاسمةٍ مع العربِ، حتى إذا توافدت على إماراتِهِمْ جيوشُ الحملةِ الخامسةِ من الغربِ انطلق أسطولُهم من شواطىءِ مدينةِ عَكَّا قاصداً ميناءَ دمياطَ عامَ ١٢١٨ .

وفي دلتا مصرَ ما إن دارت رحى المعاركِ حتى لحقت الوفاةُ بالسلطانِ العادلِ وأرسل الملكُ الكاملُ إلى الصليبيين يعرضُ عليهم في ضعفٍ ظاهرٍ أن يتنازلَ لهم عن جميعِ الفتوحاتِ الأيوبيةِ بما فيها بيتُ المقدسِ مقابلَ جلائِهِمْ عن مصرَ، لكن الصليبيين قابلوا عرضَه السخىَّ بالرفضِ واستولوا على دمياطَ قبلَ أن يتابعوا سيرَهم في اتجاهِ القاهرةِ، بينما تحصَّنَ الكاملُ بجيوشه خلفَ أسوارِ المدينةِ الجديدةِ التى أقَامها وأطلق عليها اسْمَ المنصورةِ، وهناك

توافدت عليه جموعُ المصريين من كلِّ صوبٍ عازمةً على الدفاعِ عن بلادِهَا، كما وفد كلٌّ من المعظمِ والأشرفِ على رأسِ جيوشَيْهِمَا وراح الجميعُ يستعدُّ لوقفِ تقدُّمِ الجيوشِ الصليبيةِ التى ماكادت تصلُ إلى منطقةِ تفرُّعِ بحرِ أشمونَ من فرعِ دمياطَ وهى المنطقةُ التى تزخرُ ربوعُها بالقنواتِ والمجارى المائيةِ حتى أسرع الجنودُ المصريون يحطِّمُونَ الحواجزَ والسدودَ، لتنهالَ المياهُ على الصليبيين من كلِّ جانبٍ ولاتتركَ لهم سوى طريقِ الاستسلامِ والجلاءِ من البلادِ بلا قيدٍ أو شرطٍ في السابعِ من سبتمبرَ عامَ ١٢٢١

وإذا كان أبناءُ العادلِ قد أظهروا شيئًا من الترابطِ والاتحادِ في مواجهةِ الصليبيين فإنهم لم يلبثوا بعدَ فشلِ الحملةِ الخامسةِ أن أشعلوا بينهم نيرانَ الصراعاتِ حيثُ بادر المعظمُ بإظهارِ عدائِه للكاملِ وراح يتحالفُ مع جلالِ الدينِ الخوارزميِّ مهدداً بغزوِ مصرَ عامَ ١٢٢٧، مما دفع الكاملَ إلى طلبِ المساعدةِ من الإمبراطورِ الأوروبىِّ فردريك الثانى واعداً إياه بتسليمِه جميعَ الفتوحاتِ الأيوبيةِ في فلسطينَ ولبنانَ وسوريا، ولكنه حينما وصل فردريك الثانى بجَيْشِهِ إلى عَكَّا معتمداً على ما بذله له الكاملُ من وعودٍ كانت الظروفُ قد تبدلت تمامًا، إذ لحقت الوفاةُ بالمعظمِ تاركًا أراضيَ دولَتِهِ لابْنِهِ الناصرِ داودَ، ولما كانَ الناصرُ لايزالُ شابّاً



صغيراً اقتسم عَمَّاهُ الكاملُ والأشرفُ أملاكَه تاركين له حكمَ إحدى الإقطاعياتِ الثانويةِ، وهكذا لم يعد الكاملُ في حاجةٍ إلى مساعدةِ الإمبراطورِ الأوربى، غيرَ أنه عاد وتخوَّفَ من احتمالِ قيادتِه لجيوشِ الصليبيين وزحفِه على أراضى فلسطينَ ومصرَ في الوقتِ الذى كان فيهِ الناصرُ داودُ قد عقد التحالفَ مع جلالِ الدينِ الخوارزميِّ عازمًا على استعادةِ ملكِهِ الضائعِ وانتهى إلى عقدِ اتفاقٍ معه سلَّمَهُ بمقتضاه مفاتيحَ بيتِ المقدسِ مقابلَ عقدِ الهدنةِ لمدةِ عشرةِ أعوامٍ.

كانت آخرُ رحلاتى لبلادِكُمْ هى هذه الرحلةَ التى قمتُ بها عام ١٢٢٩ عقبَ تنازلِ الكاملِ عن بيتِ المقدسِ للإمبراطورِ فردريك الثاني، والتى أخذتُ بعد إتمامِهَا أتجوَّلُ في أرجاءِ القارةِ الأفريقيةِ لبعضِ الوقتِ قبلَ أن أتوجَّهَ إلى جزيرةِ قبرصَ في طريقى إلى أوربا، غيرَ أنه قد حدث لي في جزيرةِ قبرصَ مابدَّلَ وجهتى وجعلنى أعودُ ثانيًا إلى بلادِكُمْ، ولعلَّكم تتسائلون الآنَ عما حدث وتسبَّبَ في عودتى لمصرَ قبلَ أن يمضىَ على زيارتى السابقةِ لها عشرون عامًا، حسنًا إليكم جميعَ ماحدث.

بعد أن قضيتُ في قبرصَ بضعةَ أيامٍ وقبلَ أن أقومَ بمغادرةِ أراضيها في الثامنَ عشرَ من سبتمبرَ عامَ ١٢٤٨ متوجهًا صوبَ الأراضى الأوربيةِ إذا بشواطئِهَا قد تكدست بالسفنِ، ألفٌ وثمانمائة سفينةٍ تحملُ نحوَ ستين ألفَ مقاتلٍ بأسلحتِهِمْ ومُؤَنِهِمْ، بالإضافةِ إلى عددٍ كبيرٍ من المهندسين والحرفيين والأطباءِ بمعداتِهِمْ وآلاتِهِمْ، وبعدَ قليلٍ من الاستفسارِ علمتُ أن كلَّ هذه المظاهرةِ الحربيةِ ماهى إلا قواتُ الحملةِ الصليبيةِ السابقةِ التى يقودُها ملكُ فرنسا لويسُ التاسعُ في طريقِهِ إلى غزوِ مصرَ ومن بعدِهَا فلسطينَ ولبنانَ وسوريا، وهنا لم يكنْ عسيراً عليَّ أن

أقـدِّرَ مدى أهميـةِ مايمكنُ أن تحدثه هذه الحـملةُ من تغـيـراتٍ في خـريطة العـالمِ العربىِّ إذا ما قُدِّرَ لها النجاحُ في احتـلالِ مصرَ والسيطرةِ عليـها، خاصةً أن لديها من القـوةِ مـايؤهلُها إلى بلوغِ غـايَتِهَا، ولم يكنْ عـسـيـراً عليَّ أيضًا أن أتقرَّبَ إلى قادةِ الحملةِ بل إلى الملكِ لويسِ التاسعِ نفسِهِ بعد أن استـقـرَّ عزمى على مصـاحَبَتِهِمْ إلى مـصـرَ التى انطلقنا إليها على ظهـرِ السـفنِ الصليـبـيـةِ في نهايةِ شهرِ مـايو عامَ ١٢٤٩.

وصلت سـفنُ الحـملةِ إلى شاطىءِ دمـياطَ، فـوجـدَتْهَا مـدينةً شـديدةَ التحصين لدرجـةٍ يتـعـذَّرُ معها اقتحامُهَا مما جـعل الملكَ لويسَ التـاسعَ يقـرِّرُ النزولَ على



بقايا أحد منشآت الصالح نجم الدين أيوب في القاهرة

الضفةِ الغربيةِ لفرعِ النهرِ في الجهةِ المقابلةِ للمدينةِ حيث كان فخرُ الدينِ يوسفَ قائدُ الجيوشِ المصريةِ ينتظرُ بجنودِهِ وقد كُلِّفَ بمنعِ الصليبيين من بلوغِ الشاطىءِ، ومع شروقِ شمسِ الخامسِ من يونيةَ نزلت الزوارقُ الصليبيةُ إلى الماءِ واندفعت تحملُ فرسانَ الحملةِ في أفواجٍ متتابعةٍ صوبَ الشاطىءِ الذى تحوّلَ من فَوْرِهِ إلى ساحةٍ مشتعلةٍ بلهيبِ القتالِ تنبعثُ من جنباتِهَا صيحاتُ الصدامِ وتتشابكُ فتحجبُ عن الآذانِ ضجيجَ الأمواجِ الهادرةِ، وعلى الرغمِ من كلِّ محاولاتِ الجيوشِ المصريةِ ظلَّ الصليبيون يتدفقون على الشاطىءِ بقوةٍ حتى إذا ما مالت الشمسُ إلى المغيبِ أدرك فخرُ الدينِ عجزَهُ عن التصدِّى لهم وفشلِهِ في إرغامِهِمْ على التراجعِ إلى سفنِهِمْ فما كان منه إلا أن آثر الانسحابَ إلى الضفةِ الشرقيةِ، وهناك بدلاً من أن يحتمِيَ بجنودِهِ خلفَ أسوارِ دمياطِ أسرع يكملُ انسحابَه متجهًا صوبَ الجنوبِ مما تسبَّبَ في انتشارِ الفزعِ بين حاميةِ وأهالى دمياطَ وفرارِهِمْ من خلفهِ تاركين المدينةَ الحصينةَ وقد جُرِّدَتْ من كلِّ سبلِ الدفاعِ والمقاومةِ.!

وفي صباحِ اليومِ التالى استطاعت الجيوشُ الصليبيةُ أن تكملَ نزولَها على الشاطىءِ الغربىِّ لفرعِ النهرِ في يسرٍ وسلامةٍ، ثم مالبثت أن عبرت إلى دمياطَ حيث اجتازت أبوابَهَا المفتوحةَ واستولت على كلِّ مافيها من أسلحةٍ ومعداتٍ وأموالٍ وذخائرَ قبلَ أن تشرعَ في اتخاذِهَا مركزاً حربيّاً وقاعدةً للانطلاقِ صوبَ القاهرةِ وبينما انشغلت الجيوشُ الصليبيةُ في إعادةِ تنظيمِ صفوفِهَا داخلَ دمياطَ انتهزتُ أنا هذه الفرصةَ وأخذتُ أبحثُ عن نيلٍ إلى أن تمكنتُ من العثورِ عليه وسط جموعِ المتطوعين المصريين الذين خرجوا في طريقِهِمْ إلى مدينةِ المنصورةِ حيثُ معسكراتُ جيوشِهِمْ،

فــمـــا إن وقع بصرى عليه حتى اقتربتُ منه ورحتُ أحدِّثُهُ قائلاً : لقد طال بحثى عنك، وهأنذا أعــثــرُ عليك أخــيــراً لأعلمَ منك جميعَ مـادار على أرضِكِمْ من أحداثٍ منذ حصولِ الإمبراطورِ فـردريكَ الثـانى على بيتِ المقدسِ عامَ ١٢٢٩ .



فـقـال : بعـد حـصـوله على بيت المقـدسِ عـاد الإمـبـراطورُ فـردريكَ الثـاني إلى الغـربِ الأوربى، ليـدبَّ الضـعفُ في صــفـوفِ الإمــارات الصليبيةِ وتزدادَ الخلافاتُ والمنازعاتُ اشتعالاً بين أمرائِهَا، مما أتاح الفرصةَ أمــامَ الأيوبيين للضــغطِ عليــهم واسـتـعـادةِ مـدينةِ بيتِ المقـدسِ التى ظلّتْ محطمةَ الأسوارِ دون جيشٍ قوىٍّ يدافعُ عنها، غير أن شيئًا من ذلك لم يحدثْ لانشغال القـوى الأيوبية حينئذ بالتصدِّى لجلالِ الدينِ الخوارزمىِّ الذى راح يُغِيرُ على أراضى الملكِ الأشرفِ إغاراتٍ همجيةً مفزعةً، وعلى الرغمِ من نجاحِهِمْ في ردِّ العدوانِ الخوارزمىِّ وإلحاقِ الهزيمةِ بجلالِ الدينِ في نهايةِ شــهــرِ أغــسـطس عــام ١٢٣٠، لم يستطع الأيوبيون أن يضمنوا لدولتِهِمِ الأمنَ والسـلامـةَ، فـعـلاوةً على بقـاءِ الوجودِ الصليبىِّ جاثمًا على أراضيهم كـان الخطرُ المغـولىُّ يتـقـدَّمُ نحـوَهم بخطواتٍ ثابتةٍ .

فـقلتُ له : وهل تعـرَّضَ المغـولُ لأراضى الدولةِ الأيوبيةِ يانيلُ ؟

فقال : لقد خاض جلالُ الدين في طريقه لاستعادةِ أراضي دولَتِه صراعًا هائلاً مع الجيوشِ المغوليةِ حتى أنه اضطرَّ في إحدى معارِكِه معهم إلى إغراقِ والدَتِه وزوجَتِه في أحدِ الأنهارِ خشيةَ وقوعِهمَا في الأسرِ، وعلى الرغمِ من أنه تمكَّنَ من إحرازِ بعضِ النجاحِ عقبَ وفاةِ جنكيزخانَ عامَ ١٢٢٧، مالبث أن تدافعت عليه جيوشُ المغولِ واجتهدت في ملاحَقَتِه إلا أنه لَقِيَ مصرعَه عامَ ١٢٣١، لتنهارَ المقاومةُ الخوارزميةُ تمامًا ويقفَ المغولُ على مشارفِ أراضي العراقِ يتطلعون إليها وإلى أراضي الأيوبيين التى لايزال حكامُها في عدمِ التفاتِهِمْ إلى ذلك الخطرِ الداهمِ غيرَ قادرين على النظرِ إلى ماهو أبعدُ من مواضعِ أقدامِهِمْ .

فقلتُ له : دَعْنَا الآنَ من التنبإِ بما يمكنُ أن يجرىَ في الغدِ، ولْتُكْمِلْ قَصَّ ماوقع بالفعلِ في بلادِكمْ من أحداثٍ .

فقال : واصل الأيوبيون بعد وفاة جلالِ الدينِ الخوارزميِّ انقسامَهُمْ على أنفسِهِمْ وراح الملكُ الأشرفُ يجمعُ حولَه ملوكَ البيتِ الأيوبيِّ محرضًا إياهم على مهاجمةِ السلطانِ الكاملِ صاحبِ مصرَ، وقبل أن تدورَ رحى المعاركِ تُوُفِّيَ الأشرفُ عامَ ١٢٣٧، لكنَّ خليفتَه الملكَ الصالحَ إسماعيلَ بْنَ العادلِ ماكاد يجلسُ على عرشِ دمشقَ حتى راح يتابعُ جهودَ الأشرفِ العدائيةَ ضدَّ السلطانِ الكاملِ الذى سرعان ما انطلق بجيوشِه من مصرَ وقام بمحاصرةِ دمشقَ، فلم يمضِ علي حصارِه لها وقتٌ طويلٌ حتى نجح في اقتحامِهَا والاستيلاءِ عليها معاقبًا الصالحَ إسماعيلَ بخلعِه من حكمِهَا وإعطائِه إقطاعًا ثانويًا في أراضى لبنان في أوائلِ عامَ ١٢٣٨، ذلك العامُ الذى لم ينقضِ شهرُهُ الثالثُ إلا وقد توفى السلطانُ الكاملُ، ليخلفَه ابنُه العادلُ في الجلوسِ على عرشِ السلطنةِ في مصرَ وليبدأ بجلوسِه على

العـــرشِ دوراً جـــديداً من أدوارِ المنازعاتِ الأيوبيةِ .

فقلتُ له : وما الذى جرى في ذلك الدورِ الجديدِ يانيلُ ؟

فـقـال : مـا إن جلس العـادلُ على عـرشِ السلطنةِ في مـصـرَ حتى قـام أخـــوه الصـــالحُ نجمُ الدينِ أيوب بالاستـيـلاءِ على الحكمِ في دمـشقَ، وبالطبعِ اشتعل النزاعُ بينهما وأسرع الصالحُ إسـمـاعـيلُ باسـتـغـلالِ ذلك النزاعِ وتمكَّنَ في نهـايةِ عـامِ ١٢٣٩ من استردادِ حكمِ دمشقَ، فما كان من نجمِ الديـنِ أيـوبَ إلا أنـه ذهب إلـى النـاصـرِ داودَ صـاحبِ الأردنِّ يعـرضُ عليـه القـيـامَ بمهـاجـمـةِ مـصـرَ واستـخلاصِهَا من يدى العـادلِ الذى كـان قد مـالَ إلى العبثِ والبعـدِ عن الاهتــمــامِ بشـئـونِ الحكمِ والإدارةِ فـاستـاء منه قادةُ جنودِهِ وقـاموا بإلقـاءِ القبضِ عليه في مايو عامَ ١٢٤٠، ثم راحوا يستدعـون الصالحَ نجمَ الدينِ أيوبَ ويسلمـونه الحكمَ ليـجلسَ على عـرشِ السلطنةِ دون الحـاجـةِ إلى أىِّ مـواجهةٍ عسكريةٍ ويشـرع في إشعـالِ نيــرانِ العــداءِ مع عَمِّهِ الصـــالحِ إسماعيلَ الذى سبق أن قام بطردِهِ من دمـشقَ، وكما هى العادةُ دائمًا انقسم البيتُ الأيوبي بين الطرفين المتنازعين في فوضى عارمةٍ ازدادت ارتبـــاكًا بتدخلِ الصليبيين ومـــحـــاولـتِهِم الاستـفـادةَ من هذه الحـالةِ المتــرديةِ التى وصل إليـهـا الأيوبيون .

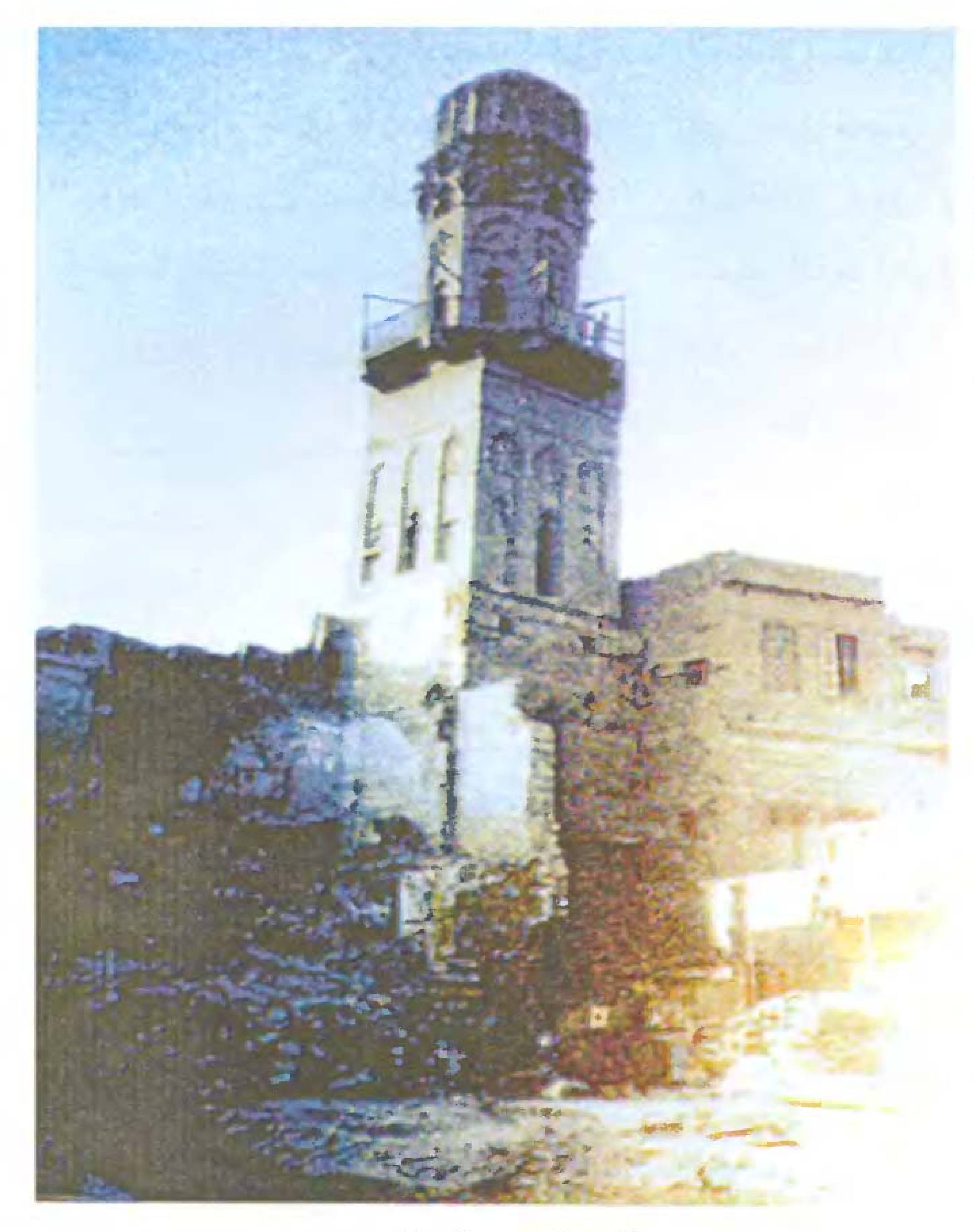


فقلتُ له : وكيف استطاع الصليبيون التدخلَ بعد أن أصابهم الوهنُ أو أنهكت الصراعاتُ الداخليةُ قوةَ إماراتِهِمْ ؟

فقال : كان السلطانُ الكاملُ قد عقد مع الإمبراطورِ فردريكَ الثاني والصليبيين هدنةً مدتُهَا عشرةُ أعوامٍ ماكادت تنتهي حتى أسرع الأوربيون يرسلون الإمدادات الحربيةَ إلى إماراتِ الصليبيين لمساعدتِهَا على استغلالِ الانقساماتِ المتفشيةِ في صفوفِ الأيوبيين، ومع وصول أنباءِ هذه الإمداداتِ انطلق الناصرُ داودُ على رأسِ جيوشِهِ إلى مدينةِ بيتِ المقدسِ وتمكّنَ من الاستيلاءِ عليها مما أصاب الصليبيين بصدمةٍ قاسيةٍ جعلتهم يسرعون بمهاجمةِ الأراضي العربيةِ، إلا أن السلطانَ العادلَ وكان لايزالُ سلطانًا على مصرَ بادر بإرسالِ جيوشِهِ إلى حيث دارت المعركةُ بالقربِ من مدينةِ غزةَ في الثالثَ عشرَ من نوفمبرَ عامَ ١١٣٩، وتمكنت الجيوشُ المصريةُ من الوقوفِ في وجهِ الصليبيين وإلحاقِ الهزيمةِ بهم قبلَ أن تعودَ إلى القاهرةِ وفي صحبتِهَا أعدادٌ وفيرةٌ من أسرى المعركةِ وبعد انتهاءِ المعركةِ وتخلُّصِ قادةِ الجندِ من السلطانِ العادلِ، راح سلطانُ مصرَ الجديدُ الصالحُ نجمُ الدينِ أيوبَ يعقدُ لواءَ التحالفِ مع الناصرِ داودَ لمهاجمةِ دمشقَ والنيلِ من الصالحِ إسماعيلَ الذى قام بدورِهِ بالاستعانةِ ببعضِ الملوكِ الأيوبيين بل راح يتعدَّى ذلك إلى طلبِ العونِ من الصليبيين، ولكى يبرهنَ لهم على صدقِ نواياه بادر بمساعدَتِهِمْ في احتلالِ بيتِ المقدسِ كما قام بتسليمِهِمْ عدةَ قلاعٍ عربيةٍ أخرى قبل أن يعدَهم بحكمِ جزءٍ كبيرٍ من أرضِ مصرَ إن هم عاونوه في غزوِهَا والسيطرةِ عليها .

فقلتُ له : وبالطبعِ وافق الصليبيون على معاونَتِهِ في غزوِ مصرَ، أليس كذلك؟

فقال : بلى يا أبتى، وسرعان ما زحف الصالحُ إسماعيلُ وحلفاؤُه الصليبيون بجيوشَيْهِمَا صوبَ مصرَ، وفي مدينةِ غزةَ ما إن دقت طبولُ الحرب معلنةً بدءَ المواجهة حتى بادر عددٌ كبيرٌ من الجنودِ السوريين بالخروجِ على الصالحِ إسماعيلَ والانضمامِ إلى صفوفِ الجيوشِ المصريةِ، لتدورَ الدائرةُ على الصليبيين ويتساقطَ جنودُهم في ساحةِ المعركةِ بين قتيلٍ وأسيرٍ قبل أن يلوذَ من تبقَّى منهم بالفرارِ عائدين إلى إماراتِهِمْ.



مآذنه المدرسه الصالحيه

وعقبَ الانتصارِ وافق سلطانُ مصرَ الصالحُ نجمُ الدينِ أيوب على عقدِ الصلحِ مع الصليبيين، لكى يتفرَّغَ لصراعِهِ مع عَمِّهِ الصالحِ إسماعيلَ،

وهكذا لم يكدْ يمرُّ على انتصارِ غزةَ أربعةُ أعوامٍ حتى كان جميعُ الملوكِ الأيوبيين يطلبون مساعدةَ الصليبيين لحسمِ ما اشتعل بينهم من منازعاتٍ .

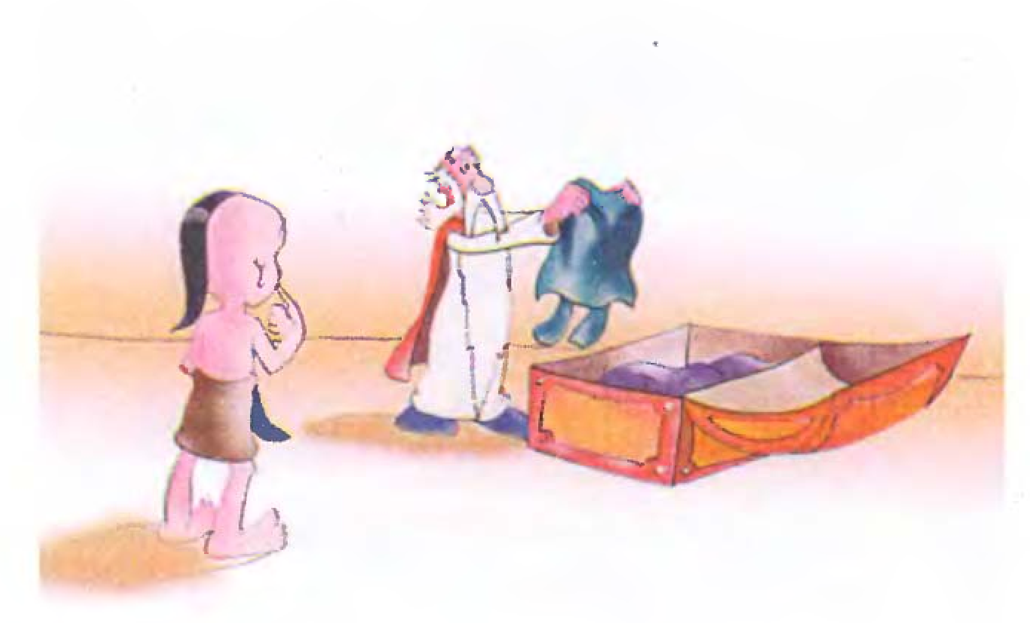
فقلتُ له : وكيف حدث ذلك ؟

فقال : بعدما نجح الصالحُ إسماعيلُ في جذبِ الناصرِ داودَ صاحبِ الأردنِّ إلى جبهتِهِ راح يسعى إلى تضييقِ الخناقِ حولَ الصالحِ نجمِ الدينِ أيوب، فبادر بإغراءِ الصليبيين بما سيمنحُه لهم من مكاسبَ إذا هم مدُّوا له يدَ العونِ في غزوِ مصرَ التى لم يجدْ سلطانُهَا مفراً من محاولةِ التقربِ لهم بدورِهِ ليضمنَ وقوفَهم بجانبِهِ ومساعدَتَه على مهاجمةِ أراضى سوريا والأردنِّ، أما الصليبيون فقد حرصوا في بدايةِ الأمرِ على إنهاكِ القوى الأيوبيةِ بعدمِ الانضمامِ إلى أيِّ من الطرفَيْنِ المتصارعَيْنِ بهدفِ الخروجِ بأكبرِ قدرٍ ممكنٍ من المكاسبِ، حتى إذا ما احتدم الصراعُ اختاروا الوقوفَ إلى جانبِ الصالحِ إسماعيلَ والناصرِ داودَ طمعًا في أرضِ مصرَ، وهنا أسرع الصالحُ نجمُ الدينِ أيوبُ يبحثُ عن مخرجٍ سريعٍ لذلك المأزقِ، فلم يجدْ أمامَه سوى الجنودِ الخوارزميين الذين تفرقوا بعد مقتلِ سلطانِهِمْ يعرضون خدماتِهِم الحربيةَ على ملوكِ وأمراءِ المشرقِ، وقد كان لاستعانَتِهِ بهؤلاءِ الجنودِ الفضلُ الأكبرُ في تحويلِ دفةِ الصراعِ لصالحِهِ .

فقلتُ له : أتقصدُ أن نجمَ الدينِ أيوبَ قد نجح بمساعدةِ هؤلاء الخوارزميين في التغلبِ على الجيوشِ الأيوبيةِ بقيادةِ الصالحِ إسماعيلَ والناصرِ داودَ بالإضافةِ إلى من انضمَّ إليها من جنودِ الصليبيين؟

فقال : لقد استجاب نحو عشرةِ آلافِ مقاتلٍ خوارزمى لدعوةِ الصالحِ نجمِ الدينِ ومالبثوا أن انطلقوا صوبَ مصرَ، وفي طريقِهِمْ إليها قاموا بالاستيلاءِ على عدةِ مواقعَ صليبيةٍ ثم

قاموا بمهاجمةِ مــــدينةِ بيتِ المقدسِ ونجحوا في الســــيطرةِ عليـهـا قـبل أن ينضــــمُّوا إلى معسكرِ الجيوشِ المصريةِ في غـزةَ حيثُ وقع الصدامُ



بجيوشِ الصليبيين وحلفائِهم الأيوبيين في السـابعَ عـشرَ من أكـتـوبرَ عـامَ ١٢٤٤، وكـــان النصــرُ للسلطانِ الصــالحِ نجمِ الدينِ وجـيــوشِهِ التى أطاحت سيـوفُها برؤوسِ نحوِ ثلاثين ألفَ صليبىٍّ، الأمرُ الذى يعدُّ أكبرَ الكوارثِ التى تعرضت لها الإماراتُ الصليبيـةُ في المشرقِ منذ مـوقـعـةِ حطِّينَ، ولم يكتفِ نجمُ الدين بذلك بل راح يفرِّقُ جيوشَه بين أراضى فلسطينَ والأردنِّ وسوريا لمتابعةِ القتالِ عازمًا على القصاصِ من الصالحِ إسماعيلَ والناصــرِ داودَ جنبًا إلى جنبٍ مع الأمراءِ الصليـبـيين، غيـرَ أنه مـا إن نجح في الاستيلاءِ على أغلبِ أراضى الأردنِّ وجنوبِ ووسطِ سوريا بما فيها مدينةُ دمشقَ حتى انشقَّ عليه جنودُه الخوارزميون معرِّضِينَ كلَّ فتوحَاتِهِ وإنجازَاتِهِ لخطرٍ جسيمٍ.

فـقلتُ له : ومـا الذى جـعلهم ينشقُّونَ عليه يانيلُ ؟

فقال : كان الخوارزميـون يأملون في أن يجزلَ لهم الصالحُ نجمُ الدينِ أيوب العطاءَ بعـد أن عـاونوه في القضاءِ على أعدائِه، غيرَ أنه تخوَّفَ

مما قد يحدثوه من فوضى إذا ما استقرَّ بهم المقامُ في دولتِه فرفض السماحَ لهم بالبقاءِ في القاهرةِ أو دمشقَ، وأمامَ ذلك الرفضِ ثار الخوارزميون، ومالبث أن انضمَّ إليهم الصالحُ إسماعيلُ والناصرُ داودُ ليزحفَ الجميعُ صوبَ سوريا وينجحون في محاصرةِ الصالحِ نجم الدينِ خلفَ أسوارِ دمشقَ، وقبل أن يمرَّ على محاصرَتِهمْ له وقتٌ طويلٌ تمكَّنَ نجمُ الدينِ من إلحاقِ الهزيمةِ بهم واستطاع تشتيتَ شملِ الخوارزميين وإبعادَ خطرِهمْ تمامًا عن أراضى دولَتِه، ثم قام بمهاجمة القلاعِ الصليبيةِ الواحدةِ من بعدِ الأخرى إلى أن تراجعت الحدودُ الجنوبيةُ لأملاكِ الصليبيين على الساحلِ الشرقيِّ للبحرِ المتوسطِ حتى مدينةِ يَافَا قبل أن يعودَ إلى دمشقَ في شهرِ نوفمبرَ عامَ ١٢٤٨، ليعيدَ تنظيمَ إدارةِ دولَتِه التى اتسعت بشكلٍ كبيرٍ، ويتلقَّى فروضَ الولاءِ من سائرِ الملوكِ الأيوبيين الذين توافدوا عليه يعلنون الخضوعَ لسلطانِه والالتزامَ بطاعَةِ أوامرِهِ .

فقلتُ له : لقد كان نجاحُ نجمِ الدينِ على هذا النحوِ إذن هو السببَ في قيامِ الحملةِ الصليبيةِ السابعةِ.

فقال : أجل يا أبتي، فقد استنجد الصليبيون بالغرب الأوربى الذى انتفض كما هو الحالُ دائمًا يدعو إلى القيامِ بحملةٍ صليبيةٍ جديدةٍ، ولما كان ما يدورُ حينئذٍ في أرجاءِ القارةِ الأوربيةِ من أحداثٍ يحولُ دون استجابةِ كثيرٍ من الملوكِ والأمراءِ لتلك الدعوةِ، لم يلبِّ النداءَ الصليبيَّ سوى لويسَ التاسعِ ملكِ فرنسا الذى أعلن استعدادَهُ لقيادةِ الحملةِ وأسرع يعدُّ جيوشَه عازمًا على غزْوِ مصرَ، حتى إذا ما وصلت أنباءُ استعداداته إلى السلطانِ الصالحِ نجمِ الدين أيوبَ وكان مريضًا في دمشقَ أمر بأن يحملَ إلى القاهرةِ حيث راح يعملُ كلَّ ما في طاقَتِهِ لإعدادِ جيوشِهِ



قاعة فرعون

وتحصينِ القلاعِ المصريةِ، وعلى الرغمِ من وفرةِ استعداداتِ بلادنَا وقوةِ تحصينَاتِهَا نجحت الجيوشُ الصليبيةُ منذ عدةِ أيامٍ في الوصولِ إلى شواطئنَا الشماليةِ وتمكنوا من الاستيلاءِ على مدينةِ دمياطَ.

فقاطعتُه قائلاً : أجَلْ أعلمُ ما كان من أمر استيلائِهِمْ على دمياطَ، فما الذى حدث بعد ذلك؟

فقال : أسرع الصالحُ نجمُ الدينِ إلى مدينةِ المنصورةِ حيث عسكر بجيوشِهِ وراح يعيدُ تنظيمَهَا استعداداً لصدِّ جيوشِ الصليبيين ومنعِهَا من الوصولِ إلى القاهرةِ، وها هى جموعُ المصريين كما ترى تزحفُ صوبَ المنصورةِ من شتى بقاعِ الدلتا والوادى للتطوعِ والمساهمةِ في ردِّ عدوانِ لويسَ التاسعِ وجنودِهِ .

فقلتُ له : حسنًا يانيلُ، الآنَ أكونُ قد علمتُ كلَّ شيءٍ عن حياةِ بلادِكم

السياسيةِ والاقتصاديةِ والاجتماعيةِ تحتَ حكمِ الأيوبيين، ولكن ماذا عن حياتِهَا الثقافيةِ والفنيةِ؟

فقالَ : اتصف السلاطينُ الأيوبيون برغبَتِهِم الدائمةِ في الارتفاعِ بمستوى الحياةِ الثقافيةِ في ربوعِ بلادِنَا على الرغمِ مما شغل عصرَهم من حروبٍ ومعاركَ لاتنتهى، فقد نقل صلاحُ الدينِ إلى أرضِنَا نظامَ المدارسِ الذى ابتدعه السلاجقةُ وأخذه عنهم حكامُ الدولةِ الزنكيةِ، فأنشأ مدرستين في عهدِ العاضدِ الفاطمى ثم أتبعهما بثلاثٍ أُخَرَ بعد انفرادِهِ بالحكمِ، وعلى نهجِ صلاحِ الدينِ حرص سلاطينُ مصرَ على نشرِ المدارسِ في جنباتِ القاهرةِ والمدنِ الرئيسيةِ، ومن أشهرِ مالدينا منها الآنَ المدرسةُ الكامليةُ التى أقامها الكاملُ بْنُ العادلِ والمدرسةُ الصالحيةُ التى أقامها السلطانُ الحالى الصالحُ نجمُ الدينِ أيوبُ بْنُ الكاملِ .

فقلتُ له :وهل اقتصر العملُ في هذه المدارسِ على تعليمِ المعارفِ الإسلاميةِ؟

فقال : كان التعليمُ في المدارسِ عندَ بدايةِ إنشائِهَا يقتصرُ على المعارفِ الإسلاميةِ، لكنه سرعانَ ماتطوَّرَ تطوراً كبيراً حتى صارَ اليومَ يعتنى بتدريسِ كافةِ المعارفِ العمليةِ والفلسفيةِ واللغويةِ جنبًا إلى جنبٍ مع علومِ الفقهِ والقرآنِ والسنةِ، ويقومُ بالتدريسِ في هذه المدارسِ مجموعةٌ مختارةٌ من كبارِ العلماءِ يساعدُهم عددٌ وفيرٌ من المعيدين الذين يتركزُ عملُهم في إعادةِ الدروسِ على الطلابِ ومناقشتِهِمْ فيها، ولخدمةِ المعلمين والمتعلمين أنشئَتْ في المدارسِ مكتباتٌ خاصةٌ علاوةً على المكتباتِ العامةِ المنتشرةِ في ربوعِ مصرَ وفي مقدمتِهَا مكتبةُ القلعةِ التى أقامها السلطانُ الكاملُ وزوَّدَهَا بنحوِ ثمانيةٍ وستين ألفَ مجلدٍ من أندرِ وأنفسِ المخطوطاتِ، وإذا كانت المدارسُ تمثِّلُ مع المساجدِ الجامعةِ معاهدَ التعليمِ العالى في بلادِنَا فقد

اهتمَّ الأيوبيون بإنشاء الكتاتيبِ كمعاهدَ للتعليمِ الأوَّليِّ يدرسُ فيها الصبيةُ مبادىءَ القراءةِ والكتابةِ والحسابِ بالإضافةِ إلى حفظِ آياتِ القرآنِ الكريمِ .

فقلتُ له : لابدَّ أنه ظهر الكثيرون الذين برعوا في إتقانِ شتَّى صنوفِ المعارفِ في مصرَ الأيوبيةِ .



مسجد الأمام الحسين

فقال : إلى جانبِ مَنْ برعوا في المعارف العملية والإسلامية تميَّزَ عصرُنَا الأيوبيُّ بكثرةِ مَنْ برعوا في المعارف الأدبية واللغوية، ففى الشعرِ برع ابْنُ سناءِ المُلْكِ وعُمَرُ بْنُ الفارضِ وبهاءُ الدينِ زهيرٌ، وفى النثرِ والنحوِ تفوَّقَ القاضى الفاضلُ ومحمدُ بْنُ برِّى وعبدُالمعطى الزواوى، أما في حفظِ الأخبارِ فقد شهدت بلادُنَا نشاطًا ملحوظًا إذ اتجه البعضُ إلى تأليفِ موسوعاتٍ ضخمةٍ في أحداثِ العالمِ الإسلاميِّ، بينما اتجه البعضُ الآخَرُ إلى تدوينِ أخبارِ الملوكِ والسلاطينِ أو حفظِ حوادثِ الصراعِ بين العربِ والصليبيين، وفي مقدمة كلِّ هؤلاء يأتى أبو علىٍّ الجوانىُّ وبهاءُ الدينِ ابْنُ شدَّادٍ.

فقلتُ له : ستساعدُنى فيما بعدُ دونَ ريْبٍ على جمعِ كلِّ ما كُتِبَ عن أخبارِ بلادِكُمْ والعالمِ الإسلاميِّ، ولكنْ دعنا نكمل الآنَ حديثَنا عن ثقافةِ مصرَ وفنونِهَا تحتَ حكمِ الأيوبيين .

فقال : في الفنونِ واصلت بلادُنَا خلالَ العصرِ الأيوبى السيرَ على

طريقِ صبغِ ماتخرجُه أيدى فنانيها بصبغةٍ قوميةٍ تحملُ من التأثيرِ المصريِّ أكثرَ مما تحملُ من التأثيرِ العربى والإسلامى العامِّ، وقد انقسمت العمارةُ الأيوبيةُ في أرضِنَا إلى قسمين أولهما هو العمارةُ الحربيةُ التى خَطَتْ مع الحروبِ الصليبيةِ خطواتٍ واسعةً صوبَ الرقيِّ والتقدمِ ويظهرُ ذلك واضحًا في السورِ الذى أقامه صلاحُ الدينِ حولَ القاهرةِ وفي القلعةِ التى أنشأها على جبلِ المقطمِ والتي كان الكاملُ أولَ مَنْ سكنها واتخذ منها مقراً للحكمِ إذ تتألفُ أبنيتُهَا من قطاعين منفصلين بجدارٍ مزدوجٍ سميكٍ، القطاعُ الشماليُّ يتكوَّنُ من الحصنِ والمنشآتِ الحربيةِ التى أقامها صلاحُ الدينِ، أما القطاعُ الجنوبي فيضمُّ القصورَ السلطنيةَ وملحقاتِهَا، وبالإضافةِ إلى قلعةِ الجبلِ اعتنى الأيوبيون بإنشاءِ وصيانةِ عددٍ كبيرٍ من القلاعِ المتفرقةِ في أرجاءِ الأراضى المصريةِ وأهمُّهَا قلعةُ سيناءَ وقلعةُ فرعونَ في خليجِ العقبةِ، أما القسمُ الثانى وهو العمارةُ المدينةُ فقد تركَّزَ ذلك القسمُ فيما أقامه الأيوبيون من مساجدَ ومدارسَ وقصورٍ منتشرةٍ في جنباتِ عاصمةِ مصرَ وأقاليمِهَا.

فقلتُ له : وماذا عن صنوفِ الفنونِ الأخرى؟

فقال : احتفظ الحفرُ على الأخشابِ في العصرِ الأيوبى بتفوُّقِهِ وازدهارِهِ وصارت زخارفُه الهندسيةُ والنباتيةُ أكثرَ إتقانًا ودقةً، وكذلك النحتُ على الحجرِ والجصِّ بأساليبِهِ المصريةِ المتميزةِ التى تظهرُ بوضوحٍ في منارةِ المشهدِ الحسينيِّ وقبةِ الإمامِ الشافعيِّ، وإذا كانت فنونُ الخزفِ قد تراجعت قليلاً في أيامِنَا هذه، كما أصبحت زخرفةُ المنسوجاتِ أكثرَ بساطةً وأقلَّ كمالاً مما كانت عليه في عصرِنَا الفاطميِّ، فقد تطورت فنونُ الزجاجِ تطوراً عظيمًا جعل من مصرَ واحدةً من أكثرِ البلدانِ تقدمًا في ذلك

النوعِ من الفنونِ.

كنا قـــد وصلنا إلى أبوابِ المنصورةِ حينما تلفت إليَّ متسائلا : هل ستبقى في بلادِنا إلى أن تعلمَ نتيجةَ حروبِنَا مع جيوشِ لويسَ التاسعِ؟

فقلتُ له : بالطبعِ فأنا لم أحضرْ إلى بلادِكُمْ إلا لكى أعلمَ نتيجةَ هذه الحروبِ .

فقال : ستظلُّ معنا في المنصورةِ إذن!

فقلتُ له :لا.. بل سأذهبُ إلى دمياطَ فلى هناك أصدقاءُ كثيرون من بينهم الملكُ لويسُ التاسعُ نفسُه .

فنظر إليَّ مستنكراً والشررُ يتطايرُ من عينَيْهِ بينما رحتُ أكملُ حديثى قائلاً : قد يكونُ الصليبيون أعداءً لكم، غيرَ أنى لم أُعَادِ ولن أعادىَ أحداً ، وما دمتُ قد قررتُ البقاءَ إلى أن تنتهىَ المعاركُ، فمن حقِّى أن أضمنَ سلامتى بالبقاءِ في الجانبِ الأقوى، وهم بلا ريبٍ الأقوى والأقربُ إلى إحرازِ النصرِ .

لم يعلقْ نيلٌ على كلماتى بل تركنى مجتازاً أبوابَ المنصورةِ في مقدمة جموعِ المتطوعين، بينما انطلقتُ أنا عائداً إلى دمياطَ حيث أخذتُ أتابعُ وصولَ الإمداداتِ إلى الحملةِ الصليبيةِ، هذه الإمداداتُ التى ما إن علم الصالحُ نجمُ الدينِ أيوبُ بأمرِ وصولِهَا حتى أرسل إلى لويسَ التاسعِ يعرضُ عليه التنازلَ عن بيتِ المقدسِ وبعضِ المدنِ الأخرى مقابلَ الجلاءِ عن مصرَ، غيرَ أن لويسَ التاسع قابَلَ عرضَه بالرفضِ، إذ كيف يوافقُ على مثل ذلك العرضِ وقد ضمن بتفوُّقِ قواتِه الحصولَ على مصرَ وكلِّ مايريدُه من أراضى فلسطينَ ولبنانَ وسوريا ؟

بقيتُ في دمياطَ أراقبُ أخبارَ مرضِ الصالحِ نجمِ الدينِ واستعداداتِ الصليبيين للتقدمِ مايقربُ من خمسةِ

أشهرٍ كاملةٍ قبلَ أن يقرِّرَ لويسُ التاسعُ الزحفَ بجيوشِه صوبَ القاهرةِ في العشرين من نوفمبرَ عامَ ١٢٤٩،

وبعد مرورِ ثلاثةِ أيامٍ على بدايةِ الزحفِ لحقت الوفاةُ بالسلطانِ الصالحِ نجمِ الدينِ وكاد الأمرُ ينقلبُ إلى كارثةٍ مروعةٍ لولا شجاعةُ زوجَتِه شجرةِ الدرِّ وسدادُ رأيِهَا، إذ أخفت خبرَ الوفاةِ عن الجميعِ عدا فخرَ الدينِ يوسفَ قائدَ الجيوشِ وأحدَ موظفى القصرِ الذى طلبت منه تدبيرَ الأمرِ بمحاكاةِ توقيعِ السلطانِ على قراراتِ الحكمِ والإدارةِ إلى أن يصل ابنُه ووليُّ عهدِهِ المعظمُ توران شاه الذى أرسلت في طلبِهِ من حصنِ كيفا الواقعِ على الضفةِ الغربيةِ لنهرِ دجلةَ، وعلى الرغمِ من مهارةِ شجرةِ الدرِّ وشدةِ حرصِهَا تسربت أخبارُ وفاةِ الصالحِ نجمِ الدينِ إلى الصليبيين الذين أرادوا انتهازَ الفرصةِ والإسراعَ في الزحفِ، غيرَ أن جهلَهم بطبيعةِ الأراضى المصريةِ والتزامَهم بالسيرِ بمحاذاةِ أسطولِهِم الذى يبحرُ في مياهِ فرعِ دمياطَ من جانبٍ، وزيادةَ هجماتِ الفدائيين المصريين على أطرافِ جيوشهم من جانبٍ آخَرَ حالت دون بلوغِهِمْ مدينةَ المنصورةِ بالسرعةِ المطلوبةِ.

وفي الجهةِ المقابلةِ للمنصورةِ عسكرت الجيوشُ الصليبيةُ يفصلُها عن جيوشِ مصرَ بحرُ أشمومَ، وعن طريقِ مخاضةٍ قريبةٍ في ذلك البحرِ عبرت مقدمتُها في الثامنِ من فبرايرَ عامَ ١٢٥٠ بقيادةِ شقيقِ الملكِ لويسَ التاسعِ الأميرِ دارتوا الذى ما كاد يصلُ إلى الضفةِ الأخرى في بضعةِ آلافٍ من جنودِهِ حتى بادر بمهاجمةِ المصريين الذين أفزعتهم المفاجأةُ فتدافعوا صوبَ المنصورةِ، وبدلاً من أن ينتظرَ عبورَ بقيةِ الجيوشِ الصليبيةِ اندفع دراتوا برجالِهِ إلى المدينةِ حيث ساد الارتباكُ صفوفَ المصريين وخرَّ قائدُ جيوشِهِمْ صريعًا بينما واصل دارتوا تقدمَه عازمًا على اقتحامِ قصرِ



السلطانِ، وهــنـــا انشـــقت الأرضُ عن بيــبــرس البندقدارى أحد القادة المـماليك الذى تمكَّنَ من لَمِّ شـمـلِ الجـيـوشِ المصـريةِ وبادر بالتـصـدِّى لدارتوا وجنودِهِ الذين سرعان ماخارت قواهم وتفرقوا بين طرقاتِ المنصورةِ وأزقتِهَا التى سُدَّتْ مخارجُهَا بالمتاريسِ حيث انقضَّ عليـــهم الجنودُ والأهالى فلم ينجوا منهم أحدٌ يذكرُ .

ومن جديدٍ خرجت الجيوشُ المصريةُ لملاقاةِ جيوشِ الصليبيين التى كانت قد أتمت عبورَهَا واستـمرَّ القـتالُ محتدمًا حتى المساءِ دونَ أن يحسمَ أحدُ الطرفين المعركةَ لصالحه، وبعد انفصالِ الجيوشِ لم يشأ لويسُ التاسعُ الانسحابَ بجنودِهِ إلى دمياطَ بل فضَّلَ أن يظلَّ معسكرًا أمامَ المنصورةِ إلى أن يتمكَّنَ من تدبيرِ أمرِ هجومٍ جديدٍ على معسكرِ المصريين، وفي السابعِ والعشرين من فبرايرَ وصل المعظمُ تورانُ شاه وتسلَّمَ القيادةَ، فازدادت جيوشُه ثقةً في النصرِ وراحت تساندُ أسطولَها الذى هاجم أسطولَ الصليبيين فى فرعِ دمياطَ ونجح في إحرازِ عدةِ انتصاراتٍ متتاليةٍ عليه، كما نجح في منعِ وصولِ النجداتِ والمؤنِ إلى الجيوشِ الصليبيةِ عن طريقِ النهرِ مما دفع لويسِ التاسعَ إلى أن يعرضَ على توران شاه استعدادَهُ للجلاءِ عن

دمياطَ مقابلَ منحه بيتَ المقدسِ، غيرَ أنه رفض الاستجابةَ إلى عَرْضِه .

وفي الخامسِ من أبريلَ وبعد أن ساء موقفُ الصليبيين وتفشّتْ بين صفوفِهِمُ الأمراضُ والأوبئةُ بينما تخطفت هجماتُ الفدائيين المصريين جنودَهم، لم يجدْ لويسُ التاسعُ - وكان قد أصابه المرضُ - مفراً من الانسحابِ إلى دمياطَ، وهكذا تراجعت الجيوشُ الصليبيةُ يخيِّمُ عليها الضعفُ والمرضُ في انسحابٍ غيرِ منظمٍ، فلم يتركْهُمُ المصريون يتراجعون في سلامٍ بل لاحقوهم وشنُّوا عليهم هجومًا شاملاً في منتصفِ المسافةِ مابين المنصورةِ ودمياطَ فشتَّتُوا صفوفهم وأمنعوا فيهم قتلاً وأسراً قبل أن ينجحوا في القبضِ على ملكِهِمُ الذى سِيقَ أسيراً إلى المنصورةِ حيث أودِعَ دارَ القاضى فخرِ الدينِ بْنِ لقمانَ بينما سرتُ أنا وسطَ جموعِ الأسرى الصليبيين لا أدرى ماذا سيفعلُ معى المصريون أو أين سيذهبون بى !



أسمى «تاريخ»، وجدت منذ أن وجد الإنسان على سطح الأرض، معه عشت خطواته الأولى، وبين تجمعاته سعيت متنقلا من بلد إلى آخر، وطنى حيث يجد الإنسان فى العمل والإبتكار، لأراقب مسيرة أعماله، أحصى أخباره، وأدون إنجازاته يوما من بعد آخر وعاما تلو عام، تعددت زيارتى إلى كل أقطار العالم فكان لبلادكم نصيب وافر من هذه الزيارات، فيها شاهدت قيام أول حضارات الإنسان على أرضه، ولها سجلت الكثير من صفحات البطولات، وسجلات الإنجازات والرقى، واليوم وبعد كل هذه الأعوام الطوال أجلس بينكم لأحدثكم حديث مصر عبر الزمان نسترجع سويا أحداث رحلاتى إلى أرض النهر والأهرامات والحضارة.



المكتب العربى للمعارف

١٠ شارع الفريق محمد رشاد - خلف عمر أفندى

ميدان الحجاز - مصر الجديدة - القاهرة

ت : ٢٤٢١٥٢٦





موسوعة تاريخ مصر



فجر الحضارة
مصر الدولة
بناة الأهرامات
غروب شمس الأهرامات
العصر الذهبي
انتصار طيبة
تأسيس الإمبراطورية
عصر التوحيد
الرعامسة
سقوط دولة الفراعنة
مصر وآشور

مصر وفارس
مصر البطلمية
ميلاد الإسكندرية
انهيار دولة البطالمة
بين روما والإسكندرية
مصر الرومانية
مصر القبطية
مصر البيزنطية
مصر الإسلامية
مصر في عصر الراشدين
مصر في العصر الأموي
مصر في العصر العباسي

مصر الطولونية
أفراح القطائع
سقوط الدولة الطولونية
مصر الإخشيدية
مصر الفاطمية
تأسيس القاهرة
حول مآذن الأزهر
سقوط الإمبراطورية الفاطمية
مصر الأيوبية
خلفاء الناصر صلاح الدين
أمجاد المنصورة

